التّمكين النّسويّ في الفكر الغربيّ
بين عالميّة المصطلح وخصوصيّة المجتمع العربيّ المعاصر

ليلى بلخير *

المقدّمة

تتوجَّه استراتيجيَّات الخطاب العالميّ الجديد نحو تعزيز ما يُسمَّى الرّأسماليَّة النّاعمة؛ أي تمكين المرأة وجعلها مُهيمنة على مراكزِ القوَّة والسّيطرة وصُنع القرار في الإدارة والسّياسة والأدب والفكر والاقتصاد، عبر التّمركز حول نفسها وتمجيد الإنجاز الفرديّ. وأصبح طابع «النّعومة» مثل السَّيل الكاسر، يأخذ كلّ شيء ولا يترك شيئًا: الإدارة النّاعمة، الجامعة النّاعمة، الاقتصاد النّاعم، الكتابة النّاعمة، الزّمن النّاعم والمكان النّاعم. والعالم كلّه عائمٌ في حالةٍ مِنَ السُّيولَة والتَّشظِّيَ والشّتات والتّبعثُر؛ إذ تحضر أحاديث شفط الدّهون واللّياقة وبهارج الأزياء والجسد جنبًا إلى جنبٍ مع قضايا الفكر والثّقافة السّياسيَّة، والبرامج والموضوعات الدّينيّة.

لذلك؛ جاء موضوع التّمكين في الفكر الغربيّ محاولة لتقديم قراءة في المرجعيَّاتِ والأُسُس المعرفيَّة من جهة، ولفهم التَّحوُّلاتِ الاجتماعيّة المعاصِرَة من جهة أخرى، بهدف تعزيز البُعد النّقديّ للمصطلح من أصوله المعرفيَّة الغربيّة،

* دكتوراه في النّقد النّسويّ المعاصر، جامعة الإخوّة مانتوري، قسنطينة الجزائر.

وتفعيل القراءة المنتجة الفاعلة النّابعة من رؤيتنا الخاصَّة وهُويَّتنا الثّقافيَّة، حتّى نفهم القضايا الكلِّيَّة والنّهائيَّة الكامنة في النّصوص فهمًا شموليًا، ونستفيد منها في واقعنا المعاصر[1].

وتحقيقًا لهذا الهدف، ننطلق وفاق أسئلة محدَّدة تساعدنا في التَّأطيرِ المنهجيّ للموضوع:

ما مفهوم التّمكين النّسويّ في المنظور الغربيّ؟ وما مقتضياته ومرجعيَّاته الفكريَّة؟

كيف نفهم مصطلح التّمكين ومستوياته لوضعه في الأُطُرِ الوظيفيَّة للمفهوم؟

ما مراحل تطوُّر «التّمكين النّسويّ»؟ وما خطواته في الواقع الاجتماعيّ؟

كيف تتمثَّل الأبعاد العلميَّة للمصطلح من خلال فهم وتنظيم مجالات التّمكين؟

كيف نستنتج المآلات ونقف على الآثار بعد مناقشة جميع المحطَّات منهجيًا وعلميًا؟

مفهوم التّمكين النّسويّ في الفكر الغربيّ

يقول السّيّد عمر في كتابه «بناء المفاهيم ودورها في نهضة الأُمَّة»: «بَوْنٌ شاسعٌ بين تعريف (التّمكين النّسويّ) وبناء ذلك المفهوم. فالأمر ليس مجرَّد مفهوم مُركَّب من كلمتين، إنَّما هو مستودع كبير للمعاني»[2]، له علاقة بأُسس فلسفيَّة ومرجعيَّات فكريَّة، تَحْضُر مع بناءِ النّموذج المعرفيّ الخاصّ بمفهوم «التّمكين النّسويّ» في الفكر الغربيّ. «ومن ثَمَّ، فعمليَّة بناء المفاهيم هي أبعد ما تكون عن البحث في مرادفاتٍ تقرّب معانيها أو الوقوف عند دلالاتها المنطقيَّة بمنأى عن معطيات بيئتها. وتُعدّ الحرب المفاهميّة الحاليَّة أخطر من الحرب النّوويَّة، ما يجعلنا في أمسّ الحاجة إلى (التّمشيط المفاهيميّ) في العلوم كافّة، وإلى نقاط (فكريّة جمركيّة) في جميع نقاط التَّماسّ الحضريّ تأمينًا لسلامة الذّات»[3].

تاليًا، إنَّ لضبط المفهوم أولويَّة كبرى، ليكون منطلقًا أساسيًّا للوصول إلى الأهداف العمليَّة والمآلات، «فعندما يُهَيْمِن مفهوم على مستوى النّقاش الفكريّ،

1- عبد الوهاب المسيري، قضيّة المرأة بين التحرير والتّمركز حول الأنثى، ص 3.

2- السّيّد عمر، بناء المفاهيم ودورها في نهضة الأُمَّة، ص 11.

3- سيّدة محمود محمّد، مفهوم التّمكين النّسويّ من المنظورين: الغربيّ والإسلاميّ.

ويصبح موضوعًا للجدال المعرفيّ، فإنَّ ذلك الحضور يحمل معه طبيعة الهُويّة المعرفيَّة للمفهوم. كما يُعبِّر عن كون الظّاهرة المعرفيَّة ذات المفهوم محور النّقاش تعرف تحوُّلات بنيويَّة، سواء في مستوى منطق نظامها أو في مستوى الوعي بها»[1].

أهمّ مرتكز لمفهوم التّمكين هو «منح السّلطة empowerment. ويعني هذا المفهوم، في سياق الفكر النّسويّ، منح النّساء ما يلزم ليُشكِّلْنَ قوَّة في المجتمع يُحسب لها حساب اقتصاديّ واجتماعيّ وسياسيّ»[2]. ولذلك؛ يُعدّ التّمكين النّسويّ مدخلًا أساسيًّا مِن مداخل النّسويّة المعاصرة في بسط فكرة الهَيْمَنة الأنثويَّة وتعزيز النّفوذ والسّلطة على مواقع صنع القرار.

وعليه؛ فإنَّ مدخل التّمكين يُركِّز على توضيح الوعي لدى النّساء باللّامساواة أو العنف أو التّمييز الواقع عليهنَّ، ورفع استعدادهنَّ وثقتهنّ بأنفسهنَّ بأنَّهنَّ قادرات على أداءِ جميع الأدوار ذات القيمة المجتمعيَّة العليا، سواء أكان المجال سياسيًّا أو تشريعيًّا أو قانونيًّا أو تعليميًّا أو اقتصاديًّا أو صحّيًّا. وأنَّ قدراتهنَّ يمكن، إذا أتيحت لهنَّ الفرصة المتساويَة أو الموارد المتساويَة، أن ترتقي إلى قدرات الرّجال نفسها[3].

هذا في الظّاهر فقط؛ لأنَّ الباطن شيء آخر تمامًا، فكلَّما زاد الاحتفال بإصدار الوثائق العالميّة المتضمّنة «إلغاء التّمييز ضِدَّ المرأة»[4] نجد العنف في تزايد، وكلَّما كان التّقدُّم رهيبًا في إخراج الأبحاث المتعلِّقة بتحسين وضع المرأة في المجتمع، ظلَّ التّخلُّف أكثر حدَّة في الممارسات والسّلوكات؛ لأنَّ مجال التّصورات والمفاهيم أساسًا يعرف اضطرابًا كبيرًا وبلبلة غير منتهية بين الإكراهات والتّحدّيات والإنجازات.

أسالت النّسويّة الغربيّة الحبر في نضالات غير مسبوقة، من أجل اكتساب القوَّة بأيِّ شكل من الأشكال، وابتعدت عن خطاب الاسْتِكَانة والضّعف، واستجداء الحقوق والمكتسبات؛ إذ أصبحت المرأة حاليًّا محورًا للتَّوجُّه البحثيّ والعلميّ في

1- مجموعة من المؤلّفين، النّسويّة الإسلاميّة، سلسلة ملفات بحثيّة في الدّين وقضايا المجتمع الرّاهنة.

2- خديجة العزيزي، الأسس الفلسفيّة للفكر النّسويّ الغربيّ، ص 37.

3- أُميمة أبو بكر، وشيرين شكري، المرأة والجندر: إلغاء التّمييز الثّقافيّ والاجتماعيّ بين الجنسَين، ص 107.

4- اتّفاقيّة سيداو.

العالَم كلّه في المجالات كافَّة[1]. إنَّ حقيقة الأمر، هي أنَّ المرأة تحكُم العالَم اليوم، وتسيطر على العقول وتتحكَّم بها، والواقع لا يُغيِّر شيئًا في أن تكون سيطرتها في مكان[2]، وإنَّما المهمّ الوصول إلى عالم نسويّ خالص[3].

إنَّ مفهوم التّمكين النّسويّ، مِنَ المنظور الغربيّ، هو السّعي الحثيث لاتّخاذ الإجراءات اللّازمة لتمكين المرأة ومنحها القوَّة لبسط سيطرتها على الموارد والمعرفة، عبر شراكة ومساواة تامَّتين مع الرَّجل في جميع المجالات، على الصَّعيدين الأُسريّ والعامّ، وتولّي مناصب القيادة، وبالأخصّ في المجالات الذّكوريَّة، بما يُمكِّنها من التّأثير على اتّجاه التّغيير الاجتماعيّ للوصول إلى نظام اقتصاديّ واجتماعيّ أكثر دعمًا لها[4].

لذلك؛ لا بُدَّ من قراءة المفهوم وفاق اشتغاله أو في بنياتِه الفكريَّة وأُسُسه المعرفيَّة، وخصوصًا في الرَّبط بين الفكر النّسويّ الغربيّ والنّتاج الفلسفيّ لمَا بعد الحداثة والسَّرديّات الكبرى[5]؛ لأنَّ العلاقة واضحة بين النّتاج الفكريّ الفلسفيّ في الزَّمن ما بعد الحداثيّ والأعمال الرّوائية المعبّرة عن قِيَم تمكين النّساء، وصور المرأة القائدة ونماذجها في المسلسلات والأفلام ، والبطلة الخارقة في الألعاب الإلكترونيَّة، والمؤثّرات ورائدات الأعمال في وسائط التّواصل الاجتماعيّ (السّوشال ميديا). وكلّ الأعمال الإبداعيَّة في زمننا تجسيد كبير لأفكار النّقد النّسويّ الغربيّ المعاصر.

الأيديولوجيَّة الأنثويَّة والثّقافة السّائلة

بدايةً، نُسجِّل فشل المنظومة الفكريَّة الغربيّة فشلًا ذريعًا في تاريخها الطّويل، لإيجاد مفهوم عادل يجمع بين المرأة والرَّجل؛ إذ أقرَّ معظم فلاسفة العصور السّالفة بدُونيَّة المرأة وحقارتها، وأنَّها تحالفت مع الشّيطان لإخراج آدم من الجنَّة؛ بل هي

1- مجموعة من المؤلّفين، المرأة والفنّ والإعلام مِنَ التّنميط إلى التّغيير، ص 91.

2- فلاديمير ف. جيكارنتسيف، اكتساب القوة: الرجل والمرأة.

3- أوما ناريان، وساندرا هاردنغ، نقض مركزيّة المركز: الفلسفة من أجل عالم متعدّد الثقافات بعد استعماري ونسوي.

4- سّيّدة محمود محمّد، مفهوم التّمكين النّسويّ من المنظورين الغربيّ والإسلاميّ.

5- مجموعة من المؤلّفين، الفلسفة والنّسويّة في فضح ازدراء الحقّ الأنثويّ ونقضه والتّمركز الذّكوريّ ونقده، ص 480.

الشّيطان نفسه. وفي وقتنا الحاليّ، سار الأمر إلى النّقيض، وخصوصًا مع اشتغال المنظِّرين لتمكينها من مواقع صنع القرار، وتحفيزها لصياغة أيديولوجيّة خاصَّة بها مختلفة عن كلّ ما هو ذكوريّ؛ أي «مسألة تأثير الوضع الاجتماعيّ للذَّات العارفة على إنتاج المعرفة»[1]، والوضع الاجتماعيّ للأنثى كي تُهندس أيديولوجيَّتها الخاصَّة حتَّى يكون لها امتياز معرفيّ، فخرجت من النّقيض إلى نقيض أشدّ؛ من فكرة «المرأة شيطان» إلى فكرة «المرأة إلَه»؛ إذ اعتمدت معظم الكاتبات المنظّرات على الأساطير للتّأريخ لأموميّة الكون كلّه، وانطلقت من قصّة بداية الخليقة لتسجّل نقضًا لفكرة «المرأة شيطان» ولمسحها، ولتأكيد مركزيّة الأنثى. يقول عبد الوهاب المسيري: «فهذه الحركات الجديدة تؤكِّد فكرة الصّراع بشكل متطرِّف، فكلّ شيء ما هو إلَّا تعبير عن موازين القوى وثَمَرة الصّراع المستمرّ، والإنسان هو مجرَّد كائن طبيعيّ يمكن ردّه إلى الطّبيعة ـ المادَّة، ويمكن تسويته بالكائنات الطّبيعيّة. وبالفعل، يجري تسوية الإنسان بالحيوان، والنّباتات بالأشياء إلى أن يُسوَّى كلّ شيء بكلّ شيء آخر، فتتعدَّد المراكز ويتهاوى اليقين ويسقط كلّ شيء في قبضة الصّيرورة، ومن ثمَّ تظهر حالة من عدم التّعدُّد والسّيولة والتّعدديّة المفرطة»[2]؛ ما يوضح لنا خطّ الفكر النّسويّ الغربيّ العبثيّ في أعمق تجلِّياته، وبلغة بسيطة محكمة.

تحدِّي المفهوم الجنوسيّ للإنسان

تأسَّست المنظومة الفكريَّة الغربيّة على أنقاض الأسطورة والفكر الغربيّ، وقامت على إعلاء شأن المادَّة وإبعاد الدِّين بشكل كُلِّيّ. «لقد انغلق العقل في نسقه وانتظم في ذاته وأعاد ترتيب الكلمات والأشياء ـ بلغة فوكو ـ وفاق اختلال توازنيّ مرعب بين الذّات في العالم؛ إذ ظلَّ الإنسان سجين مخطَّطات وبرامج مجهولة تُنجز في داخل وحدات قياس زمنيَّة أفقدت الإنسان صلته بذاته وبالآخر. لقد انصهر الإنسان في علاقات كمِّيَّة حوَّلته إلى قيمة تبادليّة قاذفة به خارج وجود عالم الحياة نحو الاغتراب والتّشيّؤ»[3].

1- مجموعة من المؤلّفين، قضايا المرأة العربيّة الشّريعة-السّلطة-الجسد.

2- عبد الوهاب المسيري، قضيّة المرأة بين التّحرير وحركة التّمركز حول الأنثى، ص 9.

3- مجموعة من المؤلّفين، الفلسفة والنّسويّة في فضح ازدراء الحقّ الأنثويّ ونقضه والتّمركز الذّكوريّ ونقده، ص 499.

وبطبيعة الحال، كان لفكر «ميشال فوكو» (Michel Foucault)[1] اليد الطّولى في خلخلة المفهوم الجنوسيّ للإنسان، بشقَّيْه الطّبيعيَّيْن (الذّكر والأنثى)، وإعلاء حقوق الشّواذّ جنسيًّا وتشويه الفطرة السَّويَّة، والضّرب على وترِ تفسير العلاقات الطّبيعيّة الزّواجيّة بين النّساء والرّجال بكونها علاقات مفروضة بدافع السّيطرة، ولا بُدَّ من مقاومتها، وضرورة قلب الموازين الثّابتة والدّعوة إلى الميوعة بفرض التّخنُّث على مجتمع الأسوياء، فقط من أجل تحدِّي المفهوم الجنوسيّ للإنسان[2]، وتشجيع الأسوياء على ضرب البنيَة البيوثقافيّة للذّكورة[3] وتحويل الأنوثة المتعارَف عليها إلى ثقافة داعمة للخنثويّة[4] بلا ضوابط أخلاقيّة، وإنَّما بعيدة كلّ البُعد عن العقل والمنطق.

«لقد جعل من الممكن حدوث تقدُّم قويّ في أشكال السّيطرة الاجتماعيّة في هذه المنطقة من الانحرافيّة، لكنَّه أيضًا جعل مِنَ الممكن تشكيل خطاب معاكِس. فقد بدأت الجنسانيّة المثليّة بالكلام عن ذاتها والمطالبة بشرعيَّتها وطبيعتها، غالبًا بالمفردات نفسها، وباستعمال المقولات نفسها التي جُرّدت بها طبَّيًّا من أهليَّتها»[5].

من هنا، نفهم كيف تأثَّرت النّسويّات الغربيّة بمقولات «فوكو»، وكيف شَرَعت لمحاربة الأنظمة الاجتماعيّة الثّابتة، كنوع من المقاومة أو السّعي الحثيث لتحطيم المفهوم الجنوسيّ للإنسان (ذكرًا أو أنثى)، بإدراج صيغة أخرى (لا ذكر ولا أنثى)، وصيغ أخرى لا تعرف نهاية لمشوَّهين حرفيًّا ومتحوّلين جنسيًّا[6]، وتبجيل العلاقات الشّاذّة، ووسم العلاقات الطّبيعيَّة بكونها مجرَّد ابتداع إنسانيّ لشبكة علاقات اجتماعيّة اتَّخذت على مرّ التّاريخ طابع الهيمنة والسّيادة، وجعلها فكرة إعلاء الأنوثة والتّشديد على مركزيَّتِها الطُّعم لتحييد المرأة من منظومة الأسرة وفرصة لإخراجها منها للأبد، وتحدّيًا سافرًا لمفهوم بناء الجنسَين (الذّكر والأنثى)، وتشويهًا للعلاقة

1- خديجة العزيزي، الأسس الفلسفيّة للفكر النّسويّ الغربيّ، ص 123.

2- أوما ناريان، وساندرا هاردنغ، نقض مركزيّة المركز: الفلسفة من أجل عالم متعدّد الثقافات بعد استعماري ونسوي، ص 4.

3- محمّد علي الكيسيّ، ميشال فوكو، ص 63.

4- جوزيف بريستو، الجنسانيّة، ص 299.

5- ميشال فوكو، تاريخ الجنسانيّة، ص 96.

6- محمّد بكاي، جدل النّسويّة: فصول نقديّة في إزاحة الدوغمائيّات الأبويّة، ص 85.

الطّبيعيّة بينهما، وكأنَّها إقرار بوجود جنس واحد فقط هو الجنس الأنثويّ[1]، وعدّ المرأة المبدأ والغاية، مثلما قال عبد الوهاب المسيري: «فالمرأة المتمركزة حول ذاتها تشير إلى ذاتها، مكتفيَة بذاتها، تُعيد اكتشاف ذاتها وتحقيقها خارج أيّ إطار اجتماعيّ»[2].

وهذا تفسير لكثرة الأشخاص الذين قاموا بعمليّات تسمح لهم بالتّحوُّل مِنَ الذّكورة إلى الأنوثة، خصوصًا في الغرب، والتّصريح بذلك في وسائط التّكنولوجيا لأغراض تجاريّة، والتّكسّب من الفضائح وصناعة القبول بطرق مشبوهة ملتويَة، لرفع أعداد المتابعين. ولا فرق بين النّماذج المشهورة ومَنْ يسيرون في طريق الشّهرة. وهي في الحقيقة ضربة موجِعَة للفكر النّسويّ ككلّ، مع إعلان بعض النّسويّات أنَّ هذا الموقف هو موتٌ للنّسويّة، وسقوط لدواعي النّضال النّسويّ وأسبابه.

في هذا الصّدد، يُعدّ «ميشال فوكو» من أهمّ المنظّرين للفكر النّسويّ الغربيّ، خصوصًا في دعوته إلى النّهوض ومقاومة الأبنيَة الاجتماعيّة والثّقافيّة الثّابتة، وتقنين الشّذوذ أينما كان وبأشكاله كلّها، وأيضًا في ربطه العلاقة بين الخطاب والمعرفة والسّلطة والجسد؛ فالهيمنة والسّيطرة لمن امتلك الجسد والسّلطة لا تكون إلّا بامتلاك الخطاب، وإدراك هذه العلاقات حريٌّ بتغيير رؤية العالَم كلّه، وإعادة النّظر في مرتكزاته وثوابته وبُنى أنظمته الاجتماعيّة والثقافيّة.

تأنيث الإبستمولوجيا

من أهمّ الأُسس المعرفيّة لمصطلح التّمكين النّسويّ هو إنجازات المنظّرات النّسويّات الباحثات في مجال الإبستمولوجيا من أجل التّأسيس لفلسفة العلم النّسويّة، وذلك من منظور أوسع وأشمل، من منظور نقّاد ما بعد الحداثة وفلاسفتها الذين لم يهتمُّوا بأثَر مقولة الجنس[3] ودورها في إنتاج المعرفة، والتي قامت بتقويض أُسُس الإبستمولوجيا الوضعيَّة، ومحاولة طرح أسئلة حول طبيعة المعرفة وشروطها وحدودها، وحول دور الذّات العارفة في تأطير التّوجُّه العامّ للتّنظير للإبستمولوجيا النّسويّة، وذلك بطرح تساؤلات: هل الأنوثة امتياز معرفيّ؟ وما موقع الذّات العارفة؟

1- عبد الوهاب المسيري، قضيّة المرأة بين التحرير والتّمركز حول الأنثى، ص 23.

2- ليلى بلخير، خطاب المؤنّث في الرّواية الجزائريّة، ص 54.

3- نيدا جين شيفرد، أنثويّة العلم من منظور الفلسفة النّسويّة، ص 255.

وما الموضوع عند الإبستمولوجيّة النّسويّة؟ ما موقع الأنثى في مجال فلسفة العلم التي كانت حكرًا على الرجال؟ وهل تتأثّر بالوضع الاجتماعيّ للمؤنَّث؟

سنحاول في هذه العجالة فهم أهمِّيَّة طرائق النّسويّات في مجال فلسفة العلم، بكونه مظهرًا من مظاهر التّمكين النّسويّ، ومحاولتهنّ وضع أسس جديدة تحمل بصمة الأنثى؛ وذلك من باب التّشديد على إبستمولوجيّة غير متحيِّزة لجهة الذكورة، وإعلاء الأنوثة وجعلها مركزيّة، ومقاطعة النّظريّات المعرفيّة السّابقة التي لا تُلبِّي سوى المصالح الذّكوريّة[1]. ومن أشدِّ المفارقات هي رغبة المنظّرات في خوض غمار الإبستمولوجيا من وجهة أُنثويّة، ومقاطعتهنّ في الوقت نفسه التّوجّه لأيِّ شكلٍ من أشكال التّنظير والتّأسيس، فقط لأنَّ فيه الشّروط والقوانين الذّكوريّة.

وعلى الرّغم من هذه المفارقة، ومع تزايد الاشتغال الأكّاديميّ بمجال الفكر النّسويّ، نشطت بعض الباحثات في مجال فلسفة العلم النّسويّة، لمناقشة المهيمنات الثّقافيّة الكبرى وتقويضها؛ مثل السّيطرة الذّكوريّة، لتكون مبدأ انفتاح أنثويّ على الأبعاد الأخلاقيّة لفلسفة العلم، ما دام لا يمكن زعزعة شروط هذه الأبعاد الموضوعيّة الصّارمة، وإعادة النّظر في موقع الذّات العارفة المؤنثّة بالنّسبة إلى موقع سادَ فيه الرّجل ووضع شروطه الموضوعيّة وخبراته لحقب طويلة.

حاولت المفكّرات النّسويّات ولوج عوالم مختلفة، مثل ما قدَّمته الباحثة «دونا هاراوي» (Donna Haraway) حول «إبستمولوجيا السّايبورج»، والتي تعني انطلاقة وثّابة وأرضيّة لكلّ السّجالات الفلسفيّة التي جاءت بعدها وإلى يومنا هذا. «السّايبورج كائن سايبرنيتيكيّ (معرفي) هجين، بمعنى أنَّه يجمع بين الآلة والكائن الحيّ»[2]، وهذا يُعدّ التّأسيس المعرفيّ لمرحلة ما بعد الجندر، وفيه تطلّع إلى إذابة الحدود بين الشّروط التي ميَّزت «الذّكورة» عن «الأنوثة».

في الأخير، يمكن القول: «وإنْ لم يكن للباحثة والمفكّرة النّسويّة قدرة على مواكبة الشّروط الموضوعيّة في المجال برمَّته، فإنَّ مجرَّد الولوج في مجال فلسفة العلم هو محاولة جادَّة لدور محوريّ للإسهام في عمليّة المعرفة، ولو بالاهتمام بالقِيَم وأخلاقيّات العلم، وتعزيز الحوار العابر للثّقافات. ولذلك؛ كان الاشتغال

1- مجموعة من المؤلّفين، قضايا المرأة العربيّة الشّريعة-السّلطة-الجسد، ص6.

2- أوما ناريان، وساندرا هاردنغ، نقض مركزيّة المركز: الفلسفة من أجل عالم متعدّد الثقافات بعد استعماري ونسوي، ص 40.

الفكريّ الفلسفيّ للمنظّرات النّسويّات مؤثِّرًا في المجال الثّقافيّ، وفي ذلك دعامة كبيرة تؤسّس لمصطلح التّمكين النّسويّ في المنظومة الفكريّة الغربيّة»[1].

مستويات التّمكين النّسويّ وأبعادها الوظيفيّة

يمكن أن يتقاطع مصطلح التّمكين النّسويّ بشكل أفضل مع مصطلح القيادة النّسويّة؛ إذ قالت فهيمة شرف الدّين: «المرأة والقيادة، نحن أمام حقلَين معرفيَّين منفصلَين ومتّصِلَين، ولا تزال حدودهما المعرفيّة غير محدَّدة المعالم»[2]؛ بمعنى صعوبة الرّبط بين «القيادة»، كونها شأن رجاليّ عتيد، وتاء التّأنيث، من جهة، ومن جهة أخرى لما فيها من أمل لتقريب المسافة بين الحقلَين حتَّى يتحقّق تقدُّم ونهضة اجتماعيّة.

في هذا الصّدد، سنتعرَّف على الجانب العمليّ لمصطلح التّمكين النّسويّ، ضمن ثلاثة مستويات:

1. التّمكين النّسويّ الذّاتيّ:

وله علاقة بالفرد والفردانيّة، ويتمثَّل بمدى ما تتَّصف به المرأة من حقوق واستقلاليّة، وما تملكه من قدرات ومؤهّلات على المستوى الذّاتيّ الخاصّ. ويمكن أن نوضّح الموضوع أكثر؛ إنَّ هذا التّفكّك والتّعامل مع المرأة على أنّها عنصر لا وظيفة له في داخل الأُسرَة ولا هُويّة ولا مرجع، تعامُلٌ يجعلها تهتمّ بالإنجازات الفرديّة في العِلم والعمل فقط، ويجعلها بلا غاية وهدف محدَّدين في داخل البيت، وبلا رسالة في الحياة. وفي هذه الحالة، يصبح التّمكين خطرًا على المرأة؛ يستهلك طاقتها في سنِّ العطاء، ويجعلها نسيًا منسيًّا بعد ذلك.

2. التّمكين النّسويّ الاجتماعيّ:

في هذا المستوى، يصبح المجتمع، بفاعليّاته كلّها، مجرَّد وسيلة لغايه واحدة: دعم مركزيّة الأنثى، لتصبح الأخلاق والقيم مجرَّد وجهة نظر، قابلة للنّقاش والأخذ والرّدّ. ولو تحدَّثنا عن وضع المرأة في داخل الأسرة، سنجد أنّ مفهوم التّمكين قد

1- وائل أحمد عبد الله صبره، ومحمد سليم محمد حنفي، إبستمولوجيا السّايبورج عند دونا هاراوي: دراسة في فلسفة العلم النّسويّة، ص 3.

2- أماني أبو رحمة، قراءة في بيان السّايبورغ العلم والتّكنولوجيا والنّسويّة الاشتراكيّة أواخر القرن العشرين.

تحوَّل إلى دلالات عديدة؛ منها دلالة «الاستقواء» و«الاستعلاء» على الرّجل في داخل البيت، فلا توجد مرتكزات وثوابت تحتكم إليها[1].

3. التّمكين النّسويّ الدّوليّ:

هذا الأخير يعكس قدرة النّساء على مأسَسة مطالبهنَّ في داخل الوطن في مجالس استشاريّة عُليا، أو تنظيمات تشريعيّة تضطَلع بسنِّ القوانين وإلزام الجميع بتطبيقها، أو بتشكيل هيئة دوليّة جامعة للعناصر النّسويّة الفاعلة، وباحثات متخصِّصات في صياغة الاتّفاقيّات، وتسطير البرامج والخطط والاستراتيجيّات والمواثيق الدّوليّة والمعاهدات. ويظهر التّمكين الدّوليّ في سيطرة قرارات الدّول العظمى على الدّول الفقيرة، واستعمال المساعدات وسيلة ضغط لتوقيع الاتّفاقيّات، ولو كان فيها بنود تُخالف الخصائص الثّقافيّة ومقوّمات هُويّة البلد المُسيطَر عليه. فالتّمكين الذّاتيّ يندرج ضمن ما تتَّصف به الأنثى من مؤهّلات القيادة وزعامة تُمكنها من تبوُّأ مراتب سامية.

أمَّا التّمكين الاجتماعيّ، فيتحدَّث عن وضع المرأة المتميِّزة في داخل الأسرة، ومقدار مساهمتها ومشاركتها في النّهوض بالمجتمع، ويكون التّركيز فيه على وضع المرأة داخل مؤسّسات العمل، والدّور الاستراتيجيّ المكلَّفة به في مواقع صنع القرار[2]. ولا نغفل عن نشاط الباحثات والأكاديميّات في الهيئات الكبرى، والمراكز المؤثّرة على مستوى العالم برمَّته في صياغة البرامج، والاتّفاقيّات، وسنِّ القوانين والسّعي إلى تعميم تطبيقها بمنطق الهَيْمَنة، في إطار حوار عابر للقارّات، ومن أجل محو الخصوصيّات الثّقافيّة.

مراحل التّمكين النّسويّ

مرَّ مصطلح التّمكين النّسويّ بمراحل وخطوات ساعدت على تشكّله وبلورته.

1. المساواة:

هي بمثابة البذرة التي ستعرف النّماء لمراحل مديدة، إذ كان المبتغى الأوَّل هو التّخفيف مِنَ النّظرة الدّونيّة إلى المرأة، والحصول على قدر من الإنصاف المادِّيّ والمعنويّ. كتبت «بيتي فريدان» (Betty Friedan) كتابها «اللّغز الأنثويّ» في

1- خديجة العزيزي، الأسس الفلسفيّة للفكر النّسويّ الغربيّ، ص 123.

2- فهيمة شرف الدّين، قضايا المرأة العربيّة المرأة والقيادة ملاحظات أوّليّة، ص 73.

نيويورك، في العام 1962م، وأوضحت فيه هذا المطلب البسيط والمُلِّح الذي يظهر غريبًا في زمننا هذا: «قد تُقلق أجوبتي الخبراء والنّساء على قَدم المساواة؛ لأنَّها تقتضي ضمنًا التّغيير الاجتماعيّ، لكن ما كانت كتابة هذا الكتاب لتحمل أيّ معنى لو لم أكن مقتنعة بأنَّ النّساء يمكن أن يؤثِّرنَ في المجتمع كما تأثَّرن به، وأنَّ المرأة في النّهاية شأنها شأن الرّجل؛ تملك القدرة على الحياة وعلى صناعة جنَّتها وجحيمها»[1]. خاصَّة وأنَّ المرأة في تلك المدّة قد عانت المرأة من ظلم وقهر على الأصعدة كافّة، وكان كلّ أملها المساواة مع الرّجل في الأجور وفي التّعليم وفي الثّقافة والمشاركة الاجتماعيّة.

«إنَّ المساواة وحقوق الإنسان إنَّما هما قِيمتان غربيتان يقينًا، قد تعقَّد أمرهما بفعل حقيقة تاريخيّة مفادها أنَّ المبادئ الغربيّة بالمساواة والحقوق قد وَجدت، على مدى عقود من الزمن، جماعات تأييد العبوديّة والاستعمار، وأنَّ تلك المساواة والحقوق، قد أُنكرت على النّساء وعلى الأقلِّيّات العرقيّة والدّينيّة والأثنيّة في داخل الأُمم الغربيّة»[2]. في هذا النّصّ إقرارٌ أنَّ مطالب النّساء بالمساواة ظهرت مع وَطْأَة الحرمان مِنَ الحقوق عند الغرب، وتناسبت تناسبًا كبيرًا مع موجة القهر والاستعباد التي عانت منها المرأة في تلك الدّيار. وعلى العكس تمامًا، فالإسلام قد حرّر المرأة من الوَأْد حيَّة وأعطاها مؤهّلات الحياة كاملة غير منقوصة[3].

2. الجندر:

إنّ ترجمة كلمة (Gender) هي النّوع الاجتماعيّ. وهي مقولة ثقافيّة وسياسيّة تختلف عن الجنس بكونه مفهومًا بيولوجيًّا. ويهتمّ الجندر بنوعيّة الأدوار بين الجنسَين، وبتحديد المسؤول عن توزيع الأدوار بين المرأة والرّجل. «ومن هذا المنطلق، فإنَّ مصطلح النّوع الاجتماعيّ أو الجندر، وتحديد الأدوار الثّلاثة: الإنجابيّ والإنتاجيّ والمجتمعيّ، المبنيّة على النّوع الاجتماعيّ، ومصطلح التّمكين، كلّها ارتبطت بأُطُرٍ نظريّة»[4].

1- ناجية الوريمي، زعامة المرأة في الإسلام المبكر بين الخطاب العام والخطاب الشّعبيّ، ص 4.

2- سيّدة محمود محمّد، مفهوم التّمكين من المنظورين: الغربيّ والإسلاميّ، ص 78.

3- بيتي فريدان، اللّغز الأنثويّ، ص 24.

4- أُميمة أبو بكر، وشيرين شكري، المرأة والجندر إلغاء التّمييز الثّقافيّ والاجتماعيّ بين الجنسَين، ص 108.

عندما نتحدَّث عن الدّراسات الجندريّة، فهذا معناه الاشتغال بقضايا النّوع الاجتماعيّ، ولا علاقة له بالجنس (ذكر أو أنثى)، وإنَّما بالآليَّات الثّقافيّة المؤثّرة في الدّور الاجتماعيّ الذي تُمارسه المرأة. ومن هذا المنطلق، جاء مشروع تمكينها مِن كلّ أدوار الرّجل، وخصوصًا مواقع صنع القرار، لتبدأ التّساؤلات عن مناقشة الأدوار النّمطيّة لكلٍّ مِنَ الرّجل والمرأة: لماذا يكون الفضاء الخارجيّ للرّجل والمساحة الدّاخليّة للمرأة؟ لماذا توجد أدوار محوريّة ومهمّة للرّجل وأدوار أقلّ أهمِّيّة للمرأة؟ وجاء على أثرها مصطلح التّمكين النّسويّ في البُعد الاجتماعيّ. ولإعادة النّظر في مسألة الدّور، لا بُدَّ من إقرار المساواة في قيمة الأدوار نفسها، وليس الخضوع للتّقسيم النّمطيّ التّقليديّ، مع استخدام المفكّرات النّسويّات مفهوم منح السّلطة أو القوّة empowerment؛ أي اختيار الدّور الاجتماعيّ المواكِب لهاتين السّلطة والقوّة، خصوصًا مواقع صنع القرار في الأصعدة والقرارات كافّة.

بدأ مفهوم الجندر مع مقولة «سيمون دي بوفوار» (Simone de Beauvoir) التّاريخيّة: «المرأة لا تولد امرأة؛ بل تصير امرأة»[1]، ثُمَّ عَرف المفهوم تطوّرًا على يد نسويّات ما بعد الحداثة، في تشديدهنّ «على ضرورة القضاء على كلّ أشكال التّمييز ضدَّ المرأة»، مثلما جاء في «اتّفاقية سيداو» الشّهيرة التي عملت لتحطيم أيّ نوع من أنواع الخصوصيّة في الوظيفة الاجتماعيّة للمرأة وللرّجل. وفي ذلك إشارة بالغة الأهمِّيّة لاحتساب المرحلة الجندريّة خلفيّة أساسيَّة لمرحلة التّمكين النّسويّ؛ إذ كانت البداية بمناقشة مسألة نوعيّة الأدوار وضرورة إلغاء التّراتبيّة النّخبويّة التي يمارسها كلٌّ من المرأة والرجل، وصولًا إلى تمكين المرأة من أدوار الرّجل برمَّتها.

3. الهُويّة أو ما بعد الجندر:

مرحلة الهُويّة من أكثر المراحل أهمِّيَّة، وتُسمَّى أيضًا: مرحلة ما بعد الجندر. ومن مجرَّد المطالبة بالمساواة والنّدِّيّة إلى مرحلة التّأسيس لمبدأ الهُويّة الأنثويّة، والتي بدأت مع توطيد فكرة الجنس وأثرها في العمل الأدبيّ[2]، وتطوَّرت على يد «جوليا كريستيفا» (Julia Kristeva) عبر ربط الهُويّة باللّغة، ودراسة النّظام السّيميوطيقي لأبنية الكلام، والتّقنيّات الأسلوبيّة التي تُصاغ بها الهُويّة في مستوى اللّغة، لتشجّع

1- ليلى بلخير، قضايا المرأة في زمن العولمة، ص 23.

2- سيف الدّين عبد الفتّاح، العولمة والإسلام رؤيتان للعالَم، ص 64-111.

الكاتبة على تجاوز لغة الرّجل وأساليبها، وبناء لغة خاصَّة بها، لغة مؤنَّثة[1].

عند ذلك، تدرَّجت مسألة الهُويّة من الاحتفاء بخصوصيّة الذّات الأنثويّة إلى التّركيز على جماليّات الأسلوب الأنثويّ؛ أي من تركيز البحث في مسألة كينونة الأنثى إلى بسط فكرة التّمركز حول الذّات الأنثويّة، وتفخيم الأنوثة وطغيانها على الأصعدة كافّة. أصبحت الأنوثة مزيَّة وقيمة عُليا واستراتيجيّة أسلوبيّة[2]. ويمكن الحديث عن الهُويّة بمنطق الاختلاف الجنسيّ واستحضار الآخر، أو «الغير يقول عنها» «ألان تولين» (Alain Touraine) متحدّثًا عن الهُويّة البيوثقافيّة للنّساء، ويقصد الهُويّة الجنسيّة البيولوجيّة والثّقافيّة، بوصفها أداة لتحقيق الذّات، في ظلِّ تكافؤ فرص مطلوب في الحياة الاجتماعيّة والثّقافيّة[3].

اتَّخذت مسألة الهُويّة والتّكنولوجيا حيِّزًا إشكاليًّا خطيرًا في وقتنا الحاليّ، ما شكَّل تحدِّيًا كبيرًا للهُويَّة الجندريّة؛ إذ أصبح الكلّ مشاركًا في عمليَّة تطويع النّوع والتّعاطي مع تركيز هُويّات كثيرة متعدِّدة من خلال المتابعة غير الواعية لحسابات أشكال هجينة وأمساخ لنماذج شبه أنثويّة، وأنصاف رجاليّة، ومتحوّلين جنسيًّا من هنا إلى هناك، ومثليّين، وكائنات سيبرنيطيقيّة، حسب ما جاء في كلام الباحثة الأمريكيّة «دونا هاراوي» (Donna Haraway)[4]، وهي كائنات حيَّة افتراضيّة مركَّبة بأعضاء صناعيّة؛ كائنات هجينة في هُويّات شديدة الميوعة والسّيولة.

يمكن القول إنَّ مسألة الهُويّة في زمن انهيار القِيَم عرفت منعرجات خطيرة، في ظلِّ الهندسة الوراثيّة والتّكنولوجيا الإنجابيّة وعمليّات التّحوُّل الجنسيّ وانتحال الشّخصيّات، وشيوع أشكال التّخنُّث على الأنظمة الطّبيعيّة للجنسَين، بحيث تموقعت المرأة وفرضت سيطرتها في الحياة الرّقميّة؛ ما ساهم في بناء هُويّات هجينة متعدّدة تُهدِّد الطّبيعة الأنثويّة والذّكوريّة بالدّمار الشّامل.

4. الجسد والتّمكين النّسويّ:

هذه المرحلة متداخلة كُلّ التّداخل مع الهُويّة، لنصل إلى هيمنة الجسد على المجالات الطّبيعيّة والرّقميّة كافّة في الواقع، وفي المواقع التّكنولوجيّة، وسيطرة

1- دروسلا كورتل وآخرون، مفاهيم عالميّة التّذكير والتّأنيث الجندر، ص 62.

2- Simone de Beauvoir, Le deuxième sexe, pp. 13-36.

3- جانيت تود، دفاعًا عن التّاريخ الأدبيّ النّسويّ، ص 62.

4- سارة جامبل وآخرون، النسوية وما بعد النسوية، ص 202.

كاملة على الأدب والفنّ والاقتصاد والإعلام والثّقافة والسّياسة، وتتعامل مع الجسد بكونه بؤرة ورهانًا على أنَّ السلطة لا تتجمَّع إلَّا لمَنِ استغلَّ الجسد وامتلكه، وامتلاكه يمرُّ حتمًا وضرورة بامتلاك الخطاب؛ لذلك يقول فوكو: «من امتلك الخطاب امتلك السّلطة»[1]. وهذا أيضًا وفاق ما قاله «نعوم تشومسكي» (Noam Chomsky) و«إدوارد هيرمان» (Edward Herrmann) في كتاب «قواعد صناعة الموافقة والقَبول»، ومعناه التّحكّم وتوجيه السّياسة والرّأي العامّ بوساطة الدّعاية المضلِّلة، والاعتماد على قوى السّوق وثقافة الصّورة والإشهار والتّرويج لتزيين كلّ ما هو غير مقبول وزرع الألفة معه؛ فيصير مقبولًا من دون إكراه ولا ضغط[2].

في ظلِّ كلّ هذه التّغيّرات في القِيَم، وانسحاب الحياء الفطريّ من المشهد، وطغيان الإباحيّة والبهيميّة والحوار العابر للثّقافات، مِنَ الصّعوبة أن يثبت الاختلاف الثّقافيّ ذاته، ما يُعدّ بمثابة حال استنفار كبرى تُدقّ فيها نواقيس الخطر لحماية الأطفال وعناصر الأسرة كافّة، من حمأة الفواحش ومستنقع الرّذائل، واستعمال المتع الشّاذّة والبهيميّة باسم إعلاء حرِّيّة الجسد، وامتلاك الإنسان لجسده، وإشاعة التّخنُّث والشّذوذ وتشويه الطّبيعة الإنسانيّة. وخصوصًا مع انتشار ثقافة الصّورة والأعمال الفنِّيّة التي تُمجِّد الجسد وتجعله صنمًا مقدَّسًا، وخاصّة الموجَّهة إلى الأطفال على شكل ألعاب إلكترونيّة، ورسوم متحرِّكة مشبَعَة بالعنف والتّحرُّش والاغتصاب، ما يشكّل استهدافًا مباشَرًا لنشر التّوحّش والحيوانيّة بشكل كبير ولأجيال مديدة، ويجعل مستقبل الإنسانيّة في خطر.

نصل بعد هذا العرض إلى نتيجة مهمَّة، وهي أنَّ فعل التّمكين النّسويّ هو في الحقيقة فعلٌ تدميريّ للطّبيعة الأنثويّة، يجعل منها أرضًا مفتوحة ومستباحة، يُذهلها الرَّيع فلا تتمكّن من الاستفادة منه، خصوصًا بإعلاء سيطرة الجسد، وتمييع الهُويّة وبناء هُويّات هجينة ومتجاوزة للفطرة السّليمة، والدّعوة إلى إحلال المساواة وعدم التّمييز بين الأنماط المخنّثة والشّاذة كافّة، وإعلاء مقامها على الأبنيَة الاجتماعيّة الثّابتة والأصيلة.

1- مجموعة من المؤلّفين، المرأة والفنّ والإعلام مِنَ التّنميط إلى التّغيير، ص 161.

2- مجموعة من المؤلّفين، الفلسفة والنّسويّة في فضح ازدراء الحقّ الأنثويّ ونقضه والتّمركز الذّكوريّ ونقده، ص 479.

مجالات التّمكين النّسويّ

أهم مجالات التّمكين:

1. الاقتصاد والتّنمية:

تحت شعار النّساء والتّنميَة من أجل عالم جديد، لا شكَّ في أنَّ الصِّلَة وطيدة بين فكرة التّمكين النّسويّ والتّنميَة الاقتصاديّة. إنَّ الغطاء الأساسيّ لأهليَّة التّمكين النّسويّ ولتعزيز سطوته هو الجانب الاقتصاديّ، «إذا ربطنا عمليّة التّنميّة التي تهدف إلى الارتقاء بالعنصر البشريّ من دون تمييز بالتّمكين، المعنيّ بتحقيق وحضور الذّات بالفعل والاختيار من دون إقصاء أو تهميش»[1].

إنَّ نصَّ التّمكين كلّه يُركِّز على إبعاد الهُويّة مِنَ التّنمية، ويشترط حضور الذّات فعلًا وتمكينًا، بغضّ النّظر إنْ كانت الهُويّة متجاوزة ما هو طبيعيّ ـ خنثويّة أو متحوّلة ـ هذا في باطنه، وفي الظّاهر يُعلن لنا أنَّ التّمكين هو إعطاء المرأة المزيد من الحِظْوَة، والسَّعي إلى تحسين مركزها الاقتصاديّ، وإعطائها مواقع السّلطة والنّفوذ حرصًا على التّنمية الاقتصاديّة الشّاملة.

2. الفنّ والإبداع:

يتمظهر المجال الخصيب للتّمكين في فعلِ إعلاء اللّغة المؤنّثة وجعلها محوريّة، ويصبح الشّأن النّسويّ موضوعًا جاذبًا يلتقي عليه العالم كلّه إبداعًا ونقدًا، وتمتاز الذّات الكاتبة بالقدرة على التّعبير الفذّ عن أزقة الأنثى. وفي هذا السّياق، تجد التّناغم العجيب بين طروحات ما بعد الحداثة وإرهاصات الفكر النّسويّ الغربيّ والأعمال الفنِّيّة الكبرى، وفي جميع المجالات، خصوصًا مع استغلال الوسائط التّكنولوجيّة في إبراز صوت الأنثى وصورتها، وحتّى تفاصيل حياتها الخاصّة، واستخدامه نوعًا من التّسويق لأعمالها الفنِّيّة.

3. الإعلام الجديد وثقافة الصّور:

تصاعد تأثير الوسائط الجديدة (السّوشيال ميديا)، خصوصًا في مناقشة قضايا التّمكين النّسويّ، لمَا لخصائص الإعلام الجديد في ما يُقدِّمه من مساحات كبيرة، والسّرعة والفوريّة والقدرة على التّخفِّي وعدم وجود القيود، خاصّة قيادة المرأة لزمام المبادرة، في إدارة حوارات فكريّة ومدوّنات أدبيّة. وساعد في ذلك قلَّة التّكلفة وسرعة الانتشار؛ ما جعل قضيَّة التّمكين تأتي في إطار عمليّ أكثر من

1- مجموعة من المؤلّفين، المرأة والفنّ والإعلام مِنَ التّنميط إلى التّغيير، ص 335.

الإطار التّنظيريّ، وأصبحت وسائل التّواصل فرصة لريادة الأعمال، وزيادة الدّخل.

استطاعت مجموعة من النّساء إنشاء علامات تجاريّة، وثمّة من استطعنَ صناعة نماذج للتّأثير بتقديم نصائح لتطوير العيش. لكنَّ وسائل التّواصل الاجتماعيّ لا تؤدِّي دورًا مهمًّا في مناقشة قضايا تمكين المرأة، وتُقدِّم في الفيديو نماذج نساء وفتيات قويّات في مجالات عدّة، أصبحنَ مؤثِّرات ولَهُنَّ متابعون ومتابعات. وهي عبارة عن تسويق منوَّع للأفكار وتجاذبات من كلِّ حدبٍ وصوب، تكون للمرأة اليد الطّوْلَى في إدارة الموضوع وصناعة التّأثير إيجابًا أو سلبًا، خصوصًا في استعمال الصّورة والجسد للتّأثير وصناعة القبول وزرع الألفة، وتسويغ الفحش والتّرويج للرّذيلة.

التّواصل والعلاقات الأُسريّة والاجتماعيّة

نحاول في هذا الطّرح الابتعاد عن عالميّة مصطلح التّمكين النّسويّ والتّركيز على خصوصيّة المجتمع العربيّ المعاصر. لذلك؛ لا بُدَّ من إثارة فكرة ضرورة تجديد خطابنا حول المرأة، وخطابنا الموجَّه إلى المرأة، كي يرتقي إلى مناقشة إشكالات الأُسرة والمجتمع بصورة كلِّيّة شاملة؛ لأنَّ النّسويّة الغربيّة تخاطب العنصر المستقلّ بذاته، تخاطب المرأة «الفرد» وترفض المؤسَّسة المنظومة الأُسريّة برمَّتها، وترفض الزّواج؛ إذ التّمركز كلّه حول المرأة والتّعامل معها بوصفها كيانًا مستقلًّا ليست له مرجعيّة ولا رسالة في الحياة. ونجد في ظلِّ التّمكين النّسويّ، والسّعي لمركزيّة الأنثى انهيارًا كاملًا لقِيَم التّكافل والتّضامن والتّراحم، وتسارعًا لترسيم القيادات النّسويّة غاية وهدفًا، على حساب طبيعتها الأنثويّة في إطارِ عولمة الأفكار وحوار عابر للثّقافات يهدف إلى إلغاء الخصوصيّات الثّقافيّة والحضاريّة.

التّمكين النّسويّ وعالميّة المصطلح

بناءً على الخطوات السّابقة، يمكن القول بأنَّ النّسويّة الغربيّة تعمل بلا هوادة لضرب قِيَم الأُسرَة تحت مِظلَّة التّنميَة، باستخدام شبكة كبيرة من المنظَّمات والجمعيّات وتسخير كوادر من الباحثات المثقّفات والنّاشطات الحقوقيّات المتخصِّصات في تغيير القوانين الخاصَّة بالأسرة، وبذل الجهد في عقدِ المؤتمرات العالميّة، وصياغة المواثيق الدّوليّة التي تتمحور جُلّها حول إظهار انتهاكات الدّين

لحقوق المرأة، ومن ثَمَّ التّركيز على تغيير المصطلحات من أجل تغيير الطّريقة التي يُفكر فيها العالَم تُجاه الأسرة.

من المساواة، إلى الجندر والهُويّة الأنثويّة والجسد، إلى التّمكين النّسويّ والتّمركز حول الأنثى... هذه المصطلحات التي درسناها في بحثنا هذا، هي مجال معرفيّ خصب لإدارة دوليّة للصّراع الفكريّ والحضاريّ.

إنَّ التّلاعب بالمصطلحات هو فنُّ التّمويه الذّكيّ لتمرير رسائل فكريّة، مُتَّخذًا أشكالًا عدَّة؛ إذ نجد تفريخًا كبيرًا لمُسمَّيات بأسماء في الظّاهر هي متفاوتة ولكنّ مضمونها واحد، تأخذ طابعًا تدافعيًّا تراكميًّا فوريًّا استقراريًّا وبعيدًا عن المعقوليّة. وعلى الرّغم من ذلك، تُسخَّر جميع إمكانات الصّورة لممارسة التّضليل؛ لتزايد الإقبال عليها في الأخبار والمواد التّرفيهية والمسلسلات والمسابقات، وحتّى في البرامج الثّقافيّة والدّينيّة.

نحن لا نبتاع من السّوق المعروضات التّافهة والرّديئة، ظنًّا منَّا أنَّنا وقعنا في فخِّ الدّعاية الكاذبة، لكنَّنا في الحقيقة نشتري مع السّلعة أسلوب الحياة، فلكلّ سلعة معروضة نمط العيش الذي انحدرت منه، وهو الذي تؤدِّيه بأمانة فائقة. ولكلّ مصطلح مرجعيَّات تحكمه وسياق ثقافيّ انحدرت منه، وهذا ما تحدَّثنا عنه في الأُسس المعرفيَّة لمصطلح التّمكين النّسويّ. والهدف الأساسيّ هو اختراق الخصوصيّة وإذابة الهُويّة، وإحلال مفاهيم غير واضحة المعالم محلّها. وكلّها دعوة إلى تقنين الشّذوذ وتبرير الفحش، وتقطيع أواصر الأسرة وضرب ما تبقَّى من وظائفها.

وفي ذلك، تقول «سارة جامبل» (Sarah Gamble): «النّسويّة أضاعت حقّ المرأة في الحياة في أنْ تكون جذّابة جنسيًّا، وفي أنْ تلهوَ وتتمتَّع بنِعَم الحياة المنزليّة. لقد دمَّرت الأُسرَة وتركت الأطفال ينشأون بلا ضوابط أخلاقيّة سليمة، وأدَّت إلى العنف ضِدَّ المرأة وحوادث قتل النّساء»[1]. ولذلك؛ نجد تفاقم إحصاءات العنف والصّراع في ظلِّ التّمكين النّسويّ. فالأصل في الأسرة الرّوابط والعلاقات، مثلما قال طه عبد الرّحمن في كتابه «روح الحداثة»: «الأسرة هي المحلّ الذي يتعلَّق فيه الإنسان بغيره تعلُّق نَسَب، ويتخلَّق فيه بحسب هذا التّعلُّق»[2].

ومن أهمّ خصائص الأسرة الحديثة أنَّها مبنيَّة على القطيعة مع الأخلاق التّقليديّة؛

1- مجموعة من المؤلّفين، المرأة والفنّ والإعلام مِنَ التّنميط إلى التّغيير، ص 334.

2- طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلاميّة.

إذ جعلتها بعيدة عن المضمون الذي أُنشئت من أجله. لقد استُبعد الدّين في داخل هذه الأسرة تمامًا، وكان التّركيز على العقل وهيمنة الذّات، فكانت النّتيجة الوقوع في البهرجة والابتذال وغياب العقل تمامًا، بحيث «تُقام العلاقة الغامضة بين (فاسق لا قانون له)، تُسيطر عليه مع ذلك القوانين القاهرة لذاته النّادرة، و(ضحاياه الذين يخضعهم لها). هكذا امتلكت الصّورة الغربيّة الحقّ في قلبِ كلّ حقٍّ مبنيّ على قوّة الأهواء وحدها، فتبدو في فوضاها حاملة في الآنِ ذاته نظامًا جديدًا»[1]. وهي منظومة سيّئة مِنَ الفوضى والعنف المادِّيّ والمعنويّ.

التّأسيس لمجتمع ما بعد الجندر

في مجتمع ما بعد الجندر، ستُهدم مقوِّمات البناء الاجتماعيّ القائم على الثّنائيّة الكونيّة «ذكورة وأنوثة»، ويُرسم الانفتاح على هُويّات هجينة متعدِّدة. وذلك كلّه نتاج هيمنة المادِّيّة وفصل الأخلاق عن الدِّين؛ إذ أضحت أخلاقنا لا دينيّة، بعيدة عن المرتكز الثّابت، ومجرَّد وجهات نظر وحرِّيّة شخصيَّة ونسبيَّة غير قطعيّة، تحت مِظلَّة الخصوصيّة، خصوصيّة في قلَّةِ الأدب، ونظامًا جديدًا للتّفاهة «يختزل النّشاط المتعلِّق به إلى مجرَّد حسابات مصالح متعلِّقة بالرّبح والخسارة الماديَّين (المال والثّروة)، أو المعنويَّين؛ مثل السّمعة والشّهرة والعلاقات الاجتماعيّة، إلى أنْ يُصاب الجسد الاجتماعيّ بالفساد بصورة بنيويّة، فيفقد النّاس اهتمامهم بالشّأن العامّ، وتقتصر همومهم على فرديَّاتهم الصّغيرة. وهكذا، نحن نلعب لعبة أعظم من أنفسنا، أو نتظاهر بالخضوع لها، نوسّع من نطاق قواعدها طول الوقت أو نخترع لها قواعد جديدة حسب الحاجة!»[2].

عندما أُفرغت الأسرة من مضمونها الرّساليّ؛ وهو تعمير الأرض بقِيَم الخير والفلاح، صارت أقرب إلى اللّعبة الشّكليّة، يؤدّيها الأطراف بصورة مادِّيّة قسريّة يعرفها الجميع ولا يتكلَّم عنها أحد؛ لأنَّه مستغرق فيها. ويكون طابع اللّعبة شكليًّا ما دامت القِيَم والأخلاق مستبعدة تمامًا.

«لقد حوَّلت الحضارة النّساء إلى موضوع إعجاب أو استغلال، ولكن حَرَمَت المرأة من شخصيَّتها، وهي الشّيء الوحيد الذي يستحقّ التّقدير والاحترام. وهذا

1- بيار ماشيري، بِمَ يُفكّر الأدب؟، ص 228.

2- آلان دونو، نظام التّفاهة، ص 3.

الوضع مشهود بشكل مطَّرد، وقد أصبح أكثر وضوحًا في مواكب الجمال أو في بعض المِهَن النسائيّة؛ مثل عارضات الأزياء. في هذه الحالات، لم تعد المرأة شخصيّة ولا حتّى كائنًا إنسانيًّا، وإنَّما هي لا تكاد تكون أكثر من حيوان جميل»[1]. وهذا من أبشع مآلات التّمكين النّسويّ، وهو التّردِّي الوضيع لدَرك البهيميّة وتسليع الجسد وعودة إلى سوق النّخاسة في صورٍ جديدة، منافيَة تمامًا للذّوق الإنسانيّ الرّفيع.

فالتّمكين النّسويّ مصطلح برَّاق ظاهره ينادي بسيادة النّساء، وباطنه عبوديّة ودونيّة وابتذال، ومؤشّر لفقدان العقل، فأن «تجد نفسك في وسط أجواء من البهرجة والابتذال، ومؤشّرات غياب العقل، وفي حاجة إلى إذهال العين للفت الأنظار وشغلها عن إدراك الفراغ الكبير الذي تركه غياب العقل»[2]، هو بداية نهاية إنسانيّة الإنسان وطغيان البهيميّة الحيوان.

انتفاء القداسة عن الزّواج

تغلغلَتْ صور أخرى دخيلة على مجتمعنا ضِدَّ الفطرة السّليمة، تُمهِّد لمجتمع مخنَّث من جهة، وديوثة اجتماعيّة عامَّة من جهة أخرى، مجتمع مادِّيّ بخصوصيّات نوويّة ذاتيّة تجزيئيّة فردانيّة، لا يحفل بهُويّة ولا نسب، مقطوع الأواصر، سائر في طريق تمجيد الإباحيّة الجنسيّة بكلّ صورها؛ الخفيّة والمُعلَنة، ويضمّ أطراف المجتمع كافّة؛ رجالًا ونساءً وأطفالًا. إنَّه زمن تمكين المرأة، وجعلها راعية رسميّة لحقوق الشّواذّ والمنبوذين.

يقول «ميشال فوكو» (Michel Foucault): «إنَّها اللّحظة التي تكون فيها آليَّات القمع قد بدأت تتراخى، وفيها نكون قد انتقلنا من محظورات جنسيّة مُلِحَّة إلى تساهل نسبيّ حيال العلاقات (ما قبل الزّواج)، أو (خارج الزّواج)، ويكون احتقار الشّواذّ قد فَقَدَ كثيرًا من حدّته، وتكون إدانتهم بالقانون قد انمحت جزئيًّا، ونكون قد رفعنا جزءًا كبيرًا من (التّابوهات) التي كانت تثقل كاهل جنسانيّة الأطفال»[3].

في هذا النّصّ توضيح صريح لمصطلح تمكين المرأة، وهو تحييد الأخلاق، وإعادة النّساء إلى مرحلة تجارة الرّقيق، مع هدر طاقتهنَّ في مهامٍّ بعيدة عن

1- علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشّرق والغرب، ص 255.

2- آلان دونو، نظام التّفاهة، مصدر سابق، ص 61.

3- ميشال فوكو، الجنسانيّة، ص 97.

طبيعتهنَّ، للتّمكُّن من إحلال الصّبغة الحيوانيّة والتّوحُّش على المجتمع برمَّته.

في زمن التّمكين، تعزف المرأة عن ممارسة أشرف دور أُنيط بها، ولا يملك أيّ مرفق أو جهاز أو دار رعاية أو مؤسَّسة تربويّة القيام به، طبعًا هو الدّور التّربويّ وتنشئة الأطفال على الإيمان بالله والقِيَم الأصيلة، من صدق وأمانة وتعاون وتسامح وروح المسؤوليّة، وحبّ الخير ونفع الآخرين، وإصلاح المجتمع. لقد فتح هذا العزوف الباب على مصراعَيه للشّذوذ والفوضى والعبثيّة والجنون والضّنك والفساد العريض، من تشويه الفطرة، إلى مخالفة الطّبيعة، وإماتة الضّمير.

إنَّها الحرب يا سادة، الحرب العالميّة الجديدة والحاسمة، إذ لا يبقى في العالم إنسان واحد طبيعيّ. حرب تحمل في طيّاتها رؤية أكثر من تخريبيّة لإنسانيَّة الإنسان، ودوره الرّياديّ ورسالته في الحياة، وفاق استراتيجيَّة تفكيكيَّة للرّوابط الأُسريّة في الواقع، وتشجيع الانفتاح على بيئات ثقافيّة غير آمنة وغير حقيقيّة منهكة جدًّا، تُسبِّب الأمراض العصبيّة والنّفسيّة، والسَّير بالأفراد لحفرِ قبور حياتهم الأُسريّة والاجتماعيّة بأيديهم. يعيشون موتًا حقيقيًّا، وهم يسيرون بين جَنَبات بيت لا انتماء لهم فيه، ومع أفراد لا يعرفون عنهم شيئًا. هذا هو الخطر الدّاهم، العزلة والانهزاميّة، الموت البطيء، فقدان لدواعي النّهوض واليأس من الحياة...

تأسيس ذلك كلّه يعود إلى عدم فهم حقيقيّ وشموليّ لموقع المرأة في الأُسرة والمجتمع، فهي ليست فردًا ولا عنصرًا مستقلًّا حتّى ننظر إلى مسألة التّمكين وكأنَّها طوق النّجاة، إنَّها أُمَّة كاملة متماسكة العناصر، مُتَّسِقَة الأركان، صافية الأعراق، ومتوحِّدة العقيدة ورفيعة الأخلاق، هي مسؤولة عن تواصل الأجيال ولادةً وتنشئة. المرأة لا تحتاج إلى تمكين يُبعدها عن هُويَّتها ولا يحفظ ماء وجهها، هي تحتاج إلى فهم دورها ومعرفة موقعها، فهي مسؤولة عن المحافظة على حياة الأُمم واستقرارها واستمرارها ثقافيًّا وحضاريًّا أجيالًا مديدة.

ولكن، هل يحقّ لنا أن نسأل: «ما الذي يحصل إذا حدَّدتَ موقعكَ في المكان الخطأ؟ سوف تُوجِّه قواك إلى الاتّجاه الخطأ، ولن تصل إلى المكان المطلوب، ستدور وتدور إلى أنْ تفقد في آخر المطاف توجُّهك، وتضلّ طريقك، وهذا هو بالضّبط ما يحصل للنّاس اليوم. إنَّ مصاعب العلاقات بين الرّجل والمرأة تنشأ اليوم من عجزهما عن رؤية موقعهما، فهما لا يعرفان أين يقع كلّ منهما»[1].

1- فلاديمير ف. جيكارنتسيف، اكتساب القوة: الرجل والمرأة، ص 298.

هذا تصوير دقيق للتّفكُّك في داخل الأُسرة المعاصرة، ولعظيم المشكلات بين طرفَيها «الرَّجل والمرأة»؛ لأنَّ كلّ طرف فاقدٌ لموقعه، ويعيش التّخبُّط بصوره كافّة، لا يفقه منهجًا واضحًا يعضد سَيْره ولا يعرف وجهة المسير، وأيّان تنتهي الرّحلة.

الخاتمة

بناءً على ما سبق، نخلص إلى النّتائج الآتية:

يُعدُّ موضوع التّمكين النّسويّ في النَّقد العربيّ، بين عالميَّة المصطلح وخصوصيَّة المجتمع العربيّ المعاصر، مِنَ المواضيع العابِرَة للتّخصُّصات أو الدّراسات البينيَّة. وهذا ما شَكَّل صعوبة في جمع أواصره، وترتيب عناصره وإخراجه في شكلِهِ المنهجيّ.

إنَّ قراءة مفهوم التّمكين النّسويّ، وفاقَ سياق اشتغاله ومرجعيَّاته وأُسسه المعرفيَّة، يجعلنا أمام ضرورة ربط الصّلات الكبرى بين فلسفة ما بعد الحداثة والنقد النّسويّ، والأعمال الفنِّيَّة الكبرى في تعبيرها عن فكرة التّمركُز حول الأنثى.

مِنْ أهمّ الأُسس المعرفيَّة لمصطلح التّمكين تحدِّي المفهوم الجنوسيّ للإنسان، وربط العلاقة بين اللّغة والسّلطة والجسد، وتأنيث الإبستمولوجيا.

يندرج التّمكين النّسويّ في ثلاثة مستويات:

١. التّمكين الفرديّ (إعلاء الذّات المؤنّثة).

٢. التّمكين الاجتماعيّ (تحسين وضع المرأة في داخل الأسرة والمجتمع).

٣. التّمكين الدّوليّ (مأسَسَة النّضال النّسويّ في ظلِّ حوار عابرٍ للثّقافات).

يمرّ التّمكين النّسويّ في النّقدِ العربيّ بمراحل عدَّة، نذكر منها: مرحلة المساواة والإنصاف، مرحلة الجندر، مرحلة الهُويّة وما بعد الجندر، مرحلة الجسد والتّمكين.

من أهمِّ مجالات التّمكين النّسويّ في ظلِّ الهيمنة الرّقميَّة والوسائط التّكنولوجيَّة:

١. الاقتصاد والتّنميَة.

٢. الفنّ والإبداع.

٣. الإعلام الجديد وثقافة الصّورة.

٤. تأثيراته على العلاقات الأُسريّة والاجتماعيّة.

هذا الأخير جامع لكلّ مراحلِ البحث السابقة، وهو أُمّ النّتائج؛ أي أثر مصطلح التّمكين النّسويّ في تغيير قِيَم الأُسرَة والمجتمع العربيّ المعاصر.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربيّة

- أبو بكر، أُميمة، وشكري، شيرين، المرأة والجندر: إلغاء التّمييز الثّقافيّ والاجتماعيّ بين الجنسَين، ط1، لبنان، دار الفكر المعاصر، 2002م.
- أبو رحمة، أماني، قراءة في بيان السّايبورغ العلم والتّكنولوجيا والنّسويّة الاشتراكيّة أواخر القرن العشرين، لقاء نظّمته دار الفنون، عمان، عبر الإنترنت، بتاريخ 5 مايو 2020م.
- اتّفاقيّة سيداو.
- بريستو، جوزيف، الجنسانيّة، ترجمة عدنان حسين، ط1، سوريا، دار الحوار للنشر، 2007م.
- بكاي، محمّد، جدل النّسويّة: فصول نقديّة في إزاحة الدوغمائيّات الأبويّة، ط1، لبنان، منشورات ضفاف، 2019م.
- بلخير، ليلى، خطاب المؤنّث في الرّواية الجزائريّة، لا ط.، قسنطينة، مكتبة اقرأ، 2016م.
- بلخير، ليلى، قضايا المرأة في زمن العولمة، ط1، الأردن، دار الكتاب الحديث، 2010م.
- بيغوفيتش، علي عزت، الإسلام بين الشّرق والغرب، ط8، مصر، دار الشّروق، 2021م.
- تود، جانيت، دفاعًا عن التّاريخ الأدبيّ النّسويّ، ترجمة ريهام حسين إبراهيم، ط1، مصر، المجلس الأعلى للثّقافة، 2002م.
- جامبل، سارة، وآخرون، النسوية وما بعد النسوية، ترجمة أحمد الشّامي، مصر، المجلس الأعلى للثّقافة، 2002م.
- جيكارنتسيف، فلاديمير ف.، اكتساب القوة: الرجل والمرأة، نقله للعربيّة حسّان مخائيل إسحق، ط1، سوريا، دار الفرقد للطباعة والنشر، 2020م.
- دونو، آلان، نظام التّفاهة، ترجمة مشاعل عبد العزيز الهاجري، ط1، لبنان، دار السّؤال، 2020م.
- شرف الدّين، فهيمة، قضايا المرأة العربيّة المرأة والقيادة ملاحظات أوّليّة، لا ط.، لا مكان، لا ناشر، لا تاريخ.

- شيفرد، نيدا جين، أنثويّة العلم من منظور الفلسفة النّسويّة، سلسلة عالم المعرفة، العدد(706)، سنة 2004م.
- صبره، وائل أحمد عبد الله، وحنفي، محمد سليم محمد، إبستمولوجيا السّايبورج عند دونا هاراوي: دراسة في فلسفة العِلم النِّسوية، مجلّة الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، المجلّد 32، العدد(60)، يوليو 2023م.
- عبد الرحمن، طه، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلاميّة، ط1، المغرب، المركز الثقافيّ العربيّ، 2006.
- عبد الفتّاح، سيف الدّين، العولمة والإسلام رؤيتان للعالَم، تحرير منى أبو الفضل ونادية مصطفى، دمشق، دار الفكر، 2009م.
- العزيزي، خديجة، الأسس الفلسفيّة للفكر النّسويّ الغربيّ، ط1، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 2005م.
- عمر، السّيّد، بناء المفاهيم ودورها في نهضة الأُمَّة، ط1، دمشق، دار الهدى للنشر والتوزيع، 2014م.
- فريدان، بيتي، اللّغز الأنثويّ، ترجمة عبد الله بديع الفاضل، ط1، دمشق، الرحبة للنشر والتوزيع، 2018م.
- فوكو، ميشال، تاريخ الجنسانيّة، ترجمة محمد هشام، لا ط.، المغرب، أفريقيا الشرق، 2004م.
- الكيسيّ، محمّد علي، ميشال فوكو، لا ط.، الإمارات، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، 2008م.
- كورتل، دروسلا، وآخرون، مفاهيم عالميّة التّذكير والتّأنيث الجندر، ترجمة أنطوان أبو زيد، ط1، المغرب، المركز الثّقافي العربيّ، 2005م.
- ماشيري، بيار، بِمَ يُفكّر الأدب؟، ترجمة جوزيف شريم، لا ط.، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2009م.
- مجموعة من المؤلّفين، الفلسفة والنّسويّة في فضح ازدراء الحقّ الأنثويّ ونقضه والتّمركز الذّكوريّ ونقده، الرّابطة العربيّة الأكاديميّة للفلسفة، ط1، الرباط، دار الأمان- الجزائر، منشورات الاختلاف، 2013م.
- مجموعة من المؤلّفين، المرأة والفنّ والإعلام مِنَ التّنميط إلى التّغيير، منظَّمة المرأة العربيّة، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2021م.

- مجموعة من المؤلّفين، النّسويّة الإسلاميّة، سلسلة ملفات بحثيّة في الدّين وقضايا المجتمع الرّاهنة، إشراف: بسّام الجمل، تنسيق: أنس الطّريقي، 13 يونيو 2016م.
- مجموعة من المؤلّفين، قضايا المرأة العربيّة الشّريعة ـ السّلطة ـ الجسد، سوريا، مجلّة المواقف ودار البدايات، 2008م.
- محمّد، سّيّدة محمود، مفهوم التّمكين النّسويّ من المنظورين الغربيّ والإسلاميّ، ط1، لا مكان، لا ناشر، 2021م.
- المسيري، عبد الوهاب، قضيّة المرأة بين التحرير والتّمركز حول الأنثى، إشراف: داليا محمّد إبراهيم، ط2، مصر، شركة نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2010م.
- ناريان، أوما، و هاردنغ، ساندرا، نقض مركزيّة المركز: الفلسفة من أجل عالم متعدّد الثقافات بعد استعماري ونسوي، ترجمة يمنى طريف الخولي، لا. ط.، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2012م.
- الوريمي، ناجية، زعامة المرأة في الإسلام المبكر بين الخطاب العام والخطاب الشّعبيّ، لا ط.، تونس، دار الجنوب، 2016م.

المراجع باللغة الأجنبيّة

- Simone de Beauvoir, *Le deuxième sexe*, éditions: Gallimard, 1949, renouvelé en 1976.